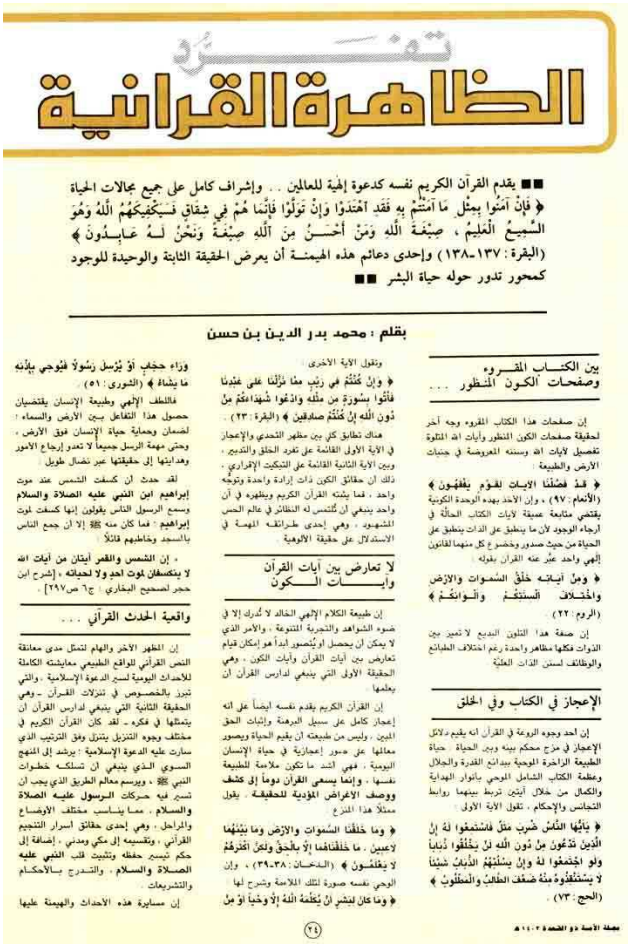

تفسير

الظاهرة القرآنية

■■ يقدم القرآن الكريم نفسه كدعوة إلهية للعالمين .. وإشراف كامل على جميع مجالات الحياة ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٧-١٣٨) وإحدى دعائم هذه الهيمنة أن يعرض الحقيقة الثابتة والوحيدة للوجود كمحور تدور حوله حياة البشر ■■

بقلم : محمد بدر الدين بن حسن

بين الكتاب المقروء وصفحات الكون المنظور ...

إن صفحات هذا الكتاب المقروء وجه آخر لحقيقة صفحات الكون المنظور وآيات الله المتلوة تفصيل لآيات الله وسننه المعروضة في جنبات الأرض والطبيعة :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٧) ، وإن الأخذ بهذه الوحدة الكونية يقتضي متابعة عميقة لآيات الكتاب المحلّة في أرجاء الوجود لأن ما ينطبق على الذات ينطبق على الحياة من حيث صدور وخضوع كل منهما لقانون إلهي واحد عبّر عنه القرآن بقوله :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ (الروم: ٢٢) .

إن صفة هذا التلون البديع لا تميز بين الذوات فكلها مظاهر واحدة رغم اختلاف الطبائع والوظائف لسنن الذات العليّة .

الإعجاز في الكتاب وفي الخلق

إن أحد وجوه الروعة في القرآن أنه يقيم دلائل الإعجاز في مزج محكم بينه وبين الحياة . حياة الطبيعة الزاخرة الموحية ببدائع القدرة والجلال وعظمة الكتاب الشامل الموحي بأنوار الهداية والكمال من خلال آيتين تربط بينهما روابط التجانس والإحكام ، تقول الآية الأولى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج: ٧٣) .

وتقول الآية الأخرى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣) .

هناك تطابق كلي بين مظهر التحدي والإعجاز في الآية الأولى القائمة على تفرد الخلق والتدبير ، وبين الآية الثانية القائمة على التبكيت الإقراري . ذلك أن حقائق الكون ذات إرادة واحدة وتوجّه واحد ، فما بثته القرآن الكريم وبظهره في آن واحد ، ينبغي أن تُلتمس له النظائر في عالم الحس المشهود ، وهي إحدى طرائف المهمة في الاستدلال على حقيقة الألوهية .

لا تعارض بين آيات القرآن وآيات الكون

إن طبيعة الكلام الإلهي الخالد لا تُدرك إلا في ضوء الشواهد والتجربة المتنوعة ، والأمر الذي لا يمكن أن يحصل أو يُتصور أبداً هو إمكان قيام تعارض بين آيات القرآن وآيات الكون ، وهي الحقيقة الأولى التي ينبغي لدارس القرآن أن يعلمها

إن القرآن الكريم يقدم نفسه أيضاً على أنه إعجاز كامل على سبيل البرهنة وإثبات الحق المبين ، وليس من طبيعته أن يقيم الحياة ويصور معالمها على صور إعجازية في حياة الإنسان اليومية ، فهي أشد ما تكون ملاءمة للطبيعة نفسها . **وإنما يسعى القرآن دوماً إلى كشف ووصف الأغراض المؤدية للحقيقة** . يقول ممثلاً هذا المنزع :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الدخان: ٣٨-٣٩) ، وإن الوحي نفسه صورة لتلك الملاءمة وشرح لها

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (الشورى: ٥١) .

فاللطف الإلهي وطبيعة الإنسان يقتضيان حصول هذا التفاعل بين الأرض والسماء ، لضمان وحماية حياة الإنسان فوق الأرض ، وحتى مهمة الرسل جميعاً لا تعدو إرجاع الأمور وهدايتها إلى حقيقتها غير نضال طويل .

لقد حدث أن كسفت الشمس عند موت **إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام** وسمع الرسول الناس يقولون إنها كسفت لموت **إبراهيم** ، فما كان منه ﷺ إلا أن جمع الناس بالمسجد وخاطبهم قائلاً :

« **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت احد ولا لحياته** » [شرح ابن حجر لصحيح البخاري . ج٦ ص٢٩٧] .

واقعية الحدث القرآني ...

إن المظهر الآخر والهام لتمثل مدى معانقة النص القرآني للواقع الطبيعي معايشته الكاملة للأحداث اليومية لسير الدعوة الإسلامية . والتي تبرز بالخصوص في تنزلات القرآن - وهي الحقيقة الثانية التي ينبغي لدارس القرآن أن يتمثلها في فكره - لقد كان القرآن الكريم في مختلف وجوه التنزيل يتنزل وفق الترتيب الذي سارت عليه الدعوة الإسلامية : يرشد إلى المنهج السوي الذي ينبغي أن تسلكه خطوات النبي ﷺ ، ويرسم معالم الطريق الذي يجب أن تسير فيه حركات **الرسول عليه الصلاة والسلام** . مما يناسب مختلف الأوضاع والمراحل . وهي إحدى حقائق أسرار التنجيم القرآني ، وتقسيمه إلى مكي ومدني ، إضافة إلى حكم تيسير حفظه وتثبيت قلب **النبي عليه الصلاة والسلام** . والتدرج بالأحكام والتشريعات .

إن مسايرة هذه الأحداث والهيمنة عليها